سورة البَيِّنة مكية

وآياتُها ثَمان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ
(١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ (٤)

اختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولِه : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » فقالَ بعضُهم : معنى ذلك : لم يكن هؤلاءِ الكفارُ مِن أهلِ التوراةِ والإنجيلِ ، والمشركونُ مِن عَبَدَةِ الأوثانِ « مُنْفَكِّينَ » يقولُ : مُنْتَهِينَ ، حتَّى يأتيَهم هذا القرآنُ . وبنحوِ الذي قلنا في ذلكَ قالَ أهلُ التأويلِ .

وقالَ آخرونَ : بل معنى ذلكَ أنَّ أهلَ الكتابِ وَهُم المشركونَ ، لم يكونوا تاركينَ صِفَةَ محمَّدٍ في كتابهم ، حَتَّى بُعِثَ ، فَلَمَّا بُعِثَ تفرَّقوا فيه .

وأَوْلى الأقوالِ في ذلكَ بالصحةِ أنْ يقالَ : معنى ذلك : لم يكن الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ والمشركينَ مُفْتَرِقِينَ في أمرِ محمَّدٍ ، حَتَّى تأتيَهم البيِّنةُ ، وهي إرسالُ اللهِ إيَّاه رسولاً إلى خَلْقِه ، رسولٌ مِن اللهِ . وقولُه : « مُنْفَكِّينَ » في هذا الموضعِ عندي مِن انْفِكاكِ الشَيْئَيْنِ أحدِهما من الآخرِ ، ولذلكَ صَلُحَ بغيرِ خبرٍ ، ولو كانَ بمعنى ما زالَ ، احتاجَ إلى خبرٍ يكونُ تماماً له ، واستؤنِفَ قولُه « رَسُولٌ مِنَ اللهِ » وهي نَكِرَةٌ على البَيِّنَةِ ، وهيَ معرفةٌ ، كما قيلَ : « ذُو الْعَرْشِ المجيدِ فَعَّالٌ » فقالَ : حتى يأتيَهم بيانُ أمرِ محمَّدٍ أنَّه رسولُ اللهِ ، ببعثةِ اللهِ إيَّاه إليهم ، ثُمَّ تَرْجَمَ عن البيِّنَةِ ، فقالَ : تلكَ البيِّنةُ « رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً » يقولُ : يَقْرَأُ صُحُفاً مُطهَّرةً مِن الباطلِ « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ» يقولُ : في الصُّحُفِ المطهَّرةِ كُتُبٌ مِن اللهِ قيِّمةٌ عادِلةٌ مستقيمةٌ ، ليسَ فيها خَطَأٌ ، لأنَّها مِن عندِ اللهِ .

وبنحوِ الذي قلنا في ذلكَ قالَ أهلُ التأويلِ .

وقولُه : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » يقولُ : وما تفرَّقَ اليهودُ والنصارى في أمرِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فكذَّبوا به ، إلاَّ مِن بعدِ ما جاءَتْهم البيِّنةُ ، يعني : مِن بعدِ ما جاءتْ هؤلاءِ اليهودَ والنصارى « البَيِّنَةُ » ، يعني : بيانُ أمرِ محمَّدٍ ، أنَّه رسولٌ بإرسالِ اللهِ إيَّاه إلى خَلْقِه ؛ يقول : فلمَّا بعثَه اللهُ تفرَّقوا فيه ، فكذَّبَ به بعضُهم ، وآمنَ بعضُهم ، وقد كانوا قبلَ أن يُبْعَثَ غيرَ مُفْتَرِقِينَ فيه أنَّه نَبيٌّ .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥

يقولُ تعالى ذكرُه : وما أَمَرَ اللهُ هؤلاءِ اليهودَ والنصارى الذينَ هم أهلُ الكتابِ إلاَّ أنْ يعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ ؛ يقولُ : مُفْرِدينَ له الطاعةَ ، لا يخلُطونَ طاعتَهم ربَّهم بشِرْكٍ ، فأشركت اليهودُ بربِّها بقولِهم إنَّ عُزَيْراً ابنُ اللهِ ، والنَّصارَى بقولِهم في المسيحِ مثلِ ذلكَ ، وجحودِهم نُبُوَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم .

وقولُه : « حُنَفَاءَ » قد مضى بيانُنا في معنى الحنيفيَّةِ قبلُ ، بشواهدِه المغنيةِ عن إعادتِها [1] .

وقولُه : « وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ » يقولُ : ولِيُقيموا الصلاةَ ، ولِيُؤتوا الزكاةَ .

وقولُه : « وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » يعني أنَّ هذا الذي ذكَرَ أنَّه أمَرَ به هؤلاءِ الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ والمشركينَ ، هو الدِّينُ القَيِّمَةُ ، ويعني بالقيِّمةِ : المستقيمةِ العادلَةِ ، وأُضيفَ الدِّينُ إلى القيِّمةِ ، والدِّينُ هو القيِّمُ ، وهو مِن نَعْتِهِ لاخْتلافِ لفظيهما . وهي في قراءةِ عبدِ الله فيما أرى فيما ذُكِرَ لنا : « وَذلِكَ الدِّينُ القَيِّمَةِ » وأُنِّثَت القيِّمةُ ، لأنَّها جُعِلَتْ صفةً للمِلَّةِ ، كأنَّه قيلَ : وذلكَ المِلَّةُ القيِّمَةُ ، دونَ اليهوديةِ والنصرانيةِ .

---

[1] قال المؤلف رحمه الله في جامع البيان (١١١/٨) عند تفسير قوله تعالى (قلْ إنني هداني ربِّي إلى صراطٍ مسقيمٍ ديناً قيماً ملةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ المشركينَ » (الأنعام ، الآية ١٦١) : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قُلْ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام (إنَّني هَدَانِي رَبّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، يقول : قل لهم : إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم ، هو دين الله الذي ابتعثه به ، وذلك الحنيفية المسلمة ، فوفقني له. دِيناً قِيَماً يقول : مستقيماً . ملَّةَ إبْرَاهِيمَ يقول : دين إبراهيم . (حَنِيفًا) ، يقول : مستقيماً . (وَما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يقول : وما كان من المشركين بالله ، يعني : إبراهيم صلوات الله عليه ، لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام » .

وبنحوِ الذي قلنا في ذلكَ قالَ أهلُ التأويلِ .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : إنَّ الذينَ كفروا باللهِ ورسولِه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فَجَحَدوا نُبُوَّتَه ، مِن اليهودِ والنصارى والمشركينَ جميعهم « فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا » يقولُ : ماكثينَ ، لابثين فيها أبداً لا يخرجونَ منها ، ولا يموتونَ فيها « أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » يقولُ جلَّ ثناؤه : هؤلاءِ الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ والمشركينَ ، هُم شَرُّ مَن بَرَأَهُ اللهُ وخَلَقَه ؛ والعَرَبُ لا تَهْمِزُ البَرِيَّةَ ، وَبتَرْكِ الهمزِ فيها قَرَأَتْها قُرَّاءُ الأمصارِ ، غير شيءٍ يُذكَرُ عن نافع بن أبي نعيم ، فإنَّه حكى بعضُهم عنه أنه كانَ يهمزُها ، وذهبَ بها إلى قولِ اللهِ : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » وأنها فَعيلَةٌ مِن ذلكَ . وأما الذينَ لم يهمزوها ، فإنَّ لِتَرْكِهِم الهمزَ في ذلكَ وجهينِ : أحدُهما أنْ يكونوا تركوا الهمزَ فيها ، كما تركوهُ مِن المَلَكِ ، وهو مفعل مِن أَلَكَ أو لأَكَ ، ومِن يَرى ، وتَرى ، ونَرى ، وهو يفعل مِن رأيت . والآخَر : أن يكونوا وَجَّهُوها إلى أنَّها فعيلةٌ مِن البَرى وهو الترابُ . حُكِيَ عن العربِ سماعاً : بفِيكَ البَرى ، يعني به : الترابُ .

وقولُه : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : إنَّ الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِه محمَّد ، وعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ حُنفاءَ ، وأقاموا الصلاةَ ، وآتوا الزكاةَ ، وأطاعوا اللهَ فيما أَمَرَ ونَهى « أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » يقولُ : مَن فَعَلَ ذلكَ من الناسِ فَهُم خيرُ البريَّةِ [٢] .

---

[٢] قال الطبري في أصل الكتاب هنا : حدثنا ابن حميد ، قال : ثنا عيسى بن فرقد ، عن أبي الجارود ، عن محمد بن علي « أولئكَ هُم خيرُ البريَّةِ » فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أنتَ يا عليّ وشيعتُكَ » . قلت : وهذا الحديث لا يصح بأي وجه من الوجوه لعلل : منها أنه منقطع ، فقد رواه محمد بن علي ، وهو الباقر ، مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا يكفي لتضعيفه ؛ وفي سنده أبو الجارود ، وهو زياد بن منذر الثقفي ، ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل ، ٥٤٥/٣) وذكر أن يزيد بن زريع قال لأبي عوانة : لا تحدثْ عن أبى الجارود فإنه أخذ كتابَه فأحرقه ... وعن عبد الله بن حنبل قال : سمعت أبى يقول : زياد بن المنذر متروك الحديث وضعَّفه جداً . وعن يحيى بن معين أنه قال : أبو الجارود زياد بن المنذر كذاب ليس بثقة . وعن أبي زرعة قال : زياد بن المنذر أبو الجارود كوفي ضعيف الحديث ، واهي الحديث . اهـ . وقد أوردت هذا الحديث المردود في الحاشية فقط للتنبيه عليه .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : ثوابُ هؤلاءِ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ عندَ ربِّهم يومَ القيامةِ « جَنَّاتُ عَدْنٍ » يعني بساتينُ إقامةٍ لا ظَعْنَ فيها ، تجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً » يقولُ : ماكثِينَ فيها أبداً ، لا يخرجونَ عنها ، ولا يموتونَ فيها « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » بما أطاعوه في الدنيا ، وعملوا لخلاصِهم مِن عِقابه في ذلكَ « وَرَضُوا عَنْهُ » بما أعطاهُم مِن الثوابِ يومئِذٍ ، على طاعتِهم ربَّهم في الدنيا ، وجزاهم عليها من الكرامةِ .

وقولُه : « ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : هذا الخيرُ الذي وَصَفْتُهُ ، ووعَدْتُه الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ يومَ القيامَةِ ، لمن خَشِيَ ربَّه ؛ يقولُ : لمن خافَ اللهَ في الدنيا في سِرِّهِ وعلانِيتِه ، فاتَّقاهُ بأداءِ فرائضِه ، واجتنابِ معاصيهِ ، وباللهِ التوفيق .

آخرُ تفسيرِ سورةِ لم يكنْ